باب عمر باشا
(1)

كانت إلينى اليونانية فى منتهى الجمال والأناقة بفستانها الأبيض فى كحلى، والذى يشبه ملابس البحارة، وقد كَسَى وجهها المرمرى الجميل احمراراً طفيفاً، وكانت عيناها العسليتان الساحرتان تقول أشياء كثيرة خجولة، وشعرها الكستنائي الطويل يصل حتى خصرها النحيل . وقد كادت تطير من الفرح للذهاب إلى السينما، وكان حسين يعتقد أنها سعيدة بالذهاب معه إلى السينما.

جلست إلينى فى اول الصف، وجلس حسين على يسارها وحاول أن يضع ذراعه اليمنى على كتفها فقالت :

ماذا تفعل ؟ ضع ذراعك جانبك.

تجمد حسين فى مجلسه لا يتكلم ولا يتحرك فقد أفحمته إلينى منذ البداية وفهم أن عليه مشاهدة الفيلم فقط .

تساءلت إلينى : هل شاهدت الوسادة الخالية من قبل ؟

حسين مقتضباً شبه غاضب : لا

لماذا الغضب إذن ؟ هذا فيلم جميل وهذه ثالث مرة أشاهده وعليك الاستمتاع به.

حسين وقد فقد الأمل فى لقاء غرامى مع هذه الإلينى : ربنا يسهل .

دارت أحداث الفيلم سريعة وقد التصقت إلينى بحسين لشعورها بالبرد بسبب التكييف . لكن حسين كان سعيداً جداً بهذا التكييف البارد.

وبدأ عبد الحليم يغنى حزيناً :

تخونوه وعمره ما خانكم ولا اشتكى منكم ...تبيعوه وعمره ما باعكم ولا انشغل عنكم ...قلبى... قلبى ليه تخونوه ؟

شعر حسين بأنفاس إلينى الحارة ودموعها المنهمرة على خده الأيمن أثناء الأغنية وهى تهمس إليه.

هل معك منديل؟ فقد تبللت كل مناديلى.

أعطاها حسين منديله لتجفف دموعها المنهمرة وهو يتعجب منها ومن هو الذى خانها ؟

شعر حسين وهو سعيد بأنفاس إلينى الحارة تقترب من خده الأيمن مرة أخرى.

شكرا يا حسين وقبلته قبلة صغيرة سريعة على خده الأيمن. هذه القبلة الصغيرة السريعة كانت بالنسبة لحسين هى الدنيا السعيدة بأكملها فقد شعر حسين بحرارة شفاة إلينى الملتهبة ولمستها الرقيقة الحانية.

خرج حسين وإلينى من السينما عائدين إلى منزلهما، فقد كانا يسكنان فى نفس المبنى القديم فى باب عمر باشا، أحد أحياء الاسكندرية القديمة والمختلطة بين أولاد العرب وغيرهم من يونانيين وأرمن وشوام وإيطاليين وغيرهم من الأوربيين من الطبقة المتوسطة والفقيرة .

إلينى سعيدة وهى تهمس بغناء : أسمر يا أسمرانى.. .. مين أسّاك عليا.. لو ترضى بهوانى ... برضه انت ال لى ليه.

سأل حسين مسروراً : هل هذه الأغنيه لى ؟

وهل أنت أسمر ؟ وابتسمت ابتسامة خبيثه وهى تدير وجها بعيداً عن حسين.

(2)

سارت إلينى وحسين عائدين إلى منزلهما وهما فى منتهى الفرح والنشوة بعد مشاهدتهما لهذا الفيلم الغرامى وسماعهما أغانى عبد الحليم حافظ الغرامية، وكانت الشوارع شبه خالية، إنه يوم الأحد عطلة إليني من المدرسة، كذلك عطلة كل المحلات التى يمتلك معظمها أوروبيون وقليل من المصريين.

وأثناء سيرهما فى شارع فؤاد متجهين لشارع العطارين أمسك حسين بيد إلينى كما فعل عبد الحليم بيد لبنى عبد العزيز، ولم تمانع إليني ذلك بل ظهر على وجهها

الحبور والترحيب، وبه بعض من الخجل، لكن الشارع كان خالياً تماماً من المتطفلين أو المارة. نظر حسين إلى وجه إلينى المرمرى الجميل وقال : هل قلت لمامتك أنك ذاهبة معى إلى السينما ؟

طبعاً ومامى كانت معترضة فى البداية لكنى أقنعتها بأنها تعرفك وتعرف أسرتك فأنتم جيراناً منذ سنوات طويلة، وهى تثق فى أخلاقك لكن عندها بعض التحفظات على تفكير السيدة مامتك وقالت لى:

الذهاب مع حسين إلى السينما فقط وليس أى شئ آخر.

واستمرت إلينى فى الحديث : وهل قلت أنت لمامتك أنك ذاهب معى إلى السينما؟

نظر حسين إلى إلينى محتداً : نعم قلت لأبى وأمى، وقد وافق أبى وأعطانى مصروفًا كبيرًا من أجل هذا اليوم على شرط الذهاب بعد الانتهاء من اليوم الدراسى وأن نذهب بالنهار والعودة بالنهار.

وماذا تعنى السيدة مامتك بالذهاب إلى السينما فقط وليس أى شئ آخر ؟

إلينى بخبث : لكنك لم تقل شيئًا عن موافقة مامتك ؟

لقد اعترضت أمى على هذه النزهة وقالت لى : عليك الانتباه للمذاكرة والانتهاء من الدراسة والعمل لكى أساعد فى تجهيز أخوتى البنات اللاتى يصغرننى بعدة سنوات، لكن أبى قال لها إن هذا كلام سابق لأوانه.

ضحكت إلينى ولم تجاوب على سؤال حسين، والتزمت الصمت. فلم يكرر حسين سؤاله.

عند جامع العطارين وشارع فؤاد دارت إلينى مع حسين ناحية اليسار فى شارع العطارين حيث يقطتان فى الربع الأخير منه فى حى باب عمر باشا أو سوق النصارى كما يسميه العامة.

لم يتكلم أحد منهما وبقيا صامتين لمدة ليست بالقصيرة. وفجأة التفت حسين إلى إلينى بوجه حزين وقال : هل أنت غاضبة من رأى أمى ؟

طبعاً لا . ولماذا أغضب منها ؟ لكنى أقدر فيك صدقك وشجاعتك، إذ كان من الممكن أن تقول إن مامتك موافقة، وهذا كان سوف يسبب لى إحراجًا لأنى أقابلها

كثيراً عندما تأتى لمسكننا لشراء أشياء من مامى أحضرتها لها من دكان بابا فنتبادل التحية، والآن وقد عرفت رأيها، واستمرت إلينى مبتسمة سوف أقول لمامى أن ترفع الأسعار عليها.

فقال حسين مبتسما : لقد مضى وقت طويل على آخر مرة أتيت إلى شقتنا واللعب مع أختى الصغيرة ؟

لقد منعتنى مامى من الذهاب إلى شقتكم واللعب مع أختك الصغيرة، وأنا الآن لى اهتمامات أخرى غير اللعب مع الأطفال، فقد كبرت على هذا.

وما هى اهتماماتك الجديدة ؟

اهتمامات خاصة وليس لك دخل بها . كذلك أننى أحب قراءة القصص الرومانسية مثل الروايات الفرنسية وروايات إحسان عبد القدوس كاتبى المفضل بالعربية.

حسين وقد تشجع عند سماعة كلمة الرومانسية : لذلك كنت تبكين عند سماعك عبد الحليم يغنى تخونه ومن هو الذى خانك ؟

نظرت إلينى إلى حسين بعيون ساحرة مليئة بعبارات لم يفهمها حسين وقالت بابتسامة ساحرة : لم يخوننى أحد لكن كانت الأغنية حزينة فتفاعلت معها واستمرت بجدية متسائلة : كيف لم تنفعل أنت مع هذه الأغنية الرقيقة ؟

لقد انفعلت مع الأغنية لكن ليس لدرجة البكاء والدموع الغزيرة مثلك.

(3)

حسين متعلثما : هل من الممكن أن أخرج معك مرة أخرى ؟

عادت إلينى إلى ابتسامتها المشاكسة من جديد وقالت بأنوثة فوارة : سوف أرد عليك لاحقاً.

اقتربت إلينى وحسين من منزلهما، فسمعا أصوات ترام البلد فى شارع الخديو المتقاطع مع شارع العطارين، واقتربا أكثر فشاهدا سوق النصارى فى باب عمر باشا

وقد انتهى معظم الباعة من عملهم اليومى، وعم فانوس الفرارجى وقد فتح دكانه لكى يطعم الطيور، وباعة الفاكهة مستمرون فى عملهم وقد نظّموا التفاح الآميركى والمشمش الحموى من سوريا والموز المغربى وغيرها من الفاكهة المحلية والمستوردة بطريقة بديعة جميلة .

أسرعت إلينى فجأة وسبقت حسين إلى منزلهما .

بادرت إلينى عم علوان البواب : سعيدة مبارك عم علوان.

سعيدة مبارك مدموزيل إلينى.

السلام عليكم عم علوان.

عليكم السلام حسين أفندى .

صعدت إلينى بسرعة البرق إلى شقتها فى الدور الثالث وكان حسين يحاول اللحاق بها لكى يسألها عن ميعادهما التالى، لكن إلينى كانت مثل الفراشة فقد طارت إلى شقتها، وهنا لم يحاول حسين أن يلحق بها حتى لا يشعر الجيران بهما، ودخل حسين شقتهم فى الطابق الثانى وهو سعيد سعادة يشوبها شئ من الحزن، فلم يحصل على إجابة إلينى للميعاد القادم.

السلام عليكم يا ماما.....عليكم السلام يا حسين ..

هل تريد تناول وجبة العشاء ؟

أجاب حسين حزيناً : لست جوعان يا ماما.

دخل حسين غرفته حزيناً يفكر فى النزهة السعيدة الذى قضاها مع إلينى وهو يتحسس خده الأيمن بسعادة وهيام، لكنها انتهت برفضها مقابلته مرة أخرى. محتمل إلينى لم يعجبها كلامى قال حسين لنفسه أو لم تعجبها ملابسى أو لم يعجبها رأى أمى فى تلك النزهة. لكنى أشعر نحوها بحب فياض وأحاسيس جميلة لم أشعر بها نحوها من قبل. فقد رأيتها كثيراً من قبل وهى تلعب مع أختى الصغيرة وكنت لا أهتم بها فماذا حدث لى ؟ لم يحدث لى شئ وإنما حدث أن إلينى كبرت فجأة وتغير جسمها وأصبحت آنسة جميلة مهذبة مثقفة يحبها كل الجيران وأنا أولهم.فيجب علىّ أن أقابلها

مرة أخرى بل مرات كثيرة قادمة. واستمر حسين يفكر فى إلينى وهو محموم بحبها الذى أشعل قلبه عندما طبعت قبلتها البريئة على خده الأيمن الذى مازال يتحسسه دائما وهو سعيد .

بعد بضعة أيام من الوله والشوق والحيرة فكر حسين فى أن يرسل خطابًا غراميًا إلى إلينى مع أخته الصغيرة، لكنه لم يستحسن الفكرة فقرر أن يقابل إلينى بنفسه فى الصباح الباكر على الدرجات بين الطابق الأول والطابق الثانى، فإن سيارة مدرستها تأخذها فى السادسة والنصف صباحاً تماما وهذا قبل خروجه لمدرسته بنصف ساعة لكن هذا لا يهم كثيرا، فإنه سوف يخرج مبكراً نصف ساعة لمدرسته وينتظرها لكى يراها ويعطيها خطابه بنفسه.

فى الصباح الباكر كان حسين يستعد للخروج لمدرسته عندما سألته أمه : لماذا أنت ذاهب لمدرستك مبكرا ؟

أجاب حسين متعلثماً: سوف أقابل بعض زملائى لمناقشة موضوع إنشاء مطلوب منّا.

انتظر حسين إلينى وهو صامت حذر على الدرجات بين الطابق الأول والطابق الثانى لكى يسمع خطواتها وهى تخرج من شقتها. لكنه سمع صوت الخواجه زخارى ابيها وصوتها تودع أمها، فقرر أن ينزل الدرجات مسرعاً إلى الشارع لكى لا يراه أبوها ويشك فى الأمر.

(4)

وقف حسين أمام باب العمارة فى انتظار زملائه لكى يركب معهم الترام إلى مدرسة العباسية الثانوية فى محرم بك، وكان يعرف أنه لن يظهر منهم أحد قبل نصف ساعة، وفجأة سمع الخواجه زخارى يتحدث إليه : نهارك سعيد حسين.

نهارك سعيد مسيو زخارى، نهارك سعيد مدموزيل إلينى.

نظرت إلينى إلى ابيها فوجدته يتحدث مع عم علوان البواب، فأدارت وجهها إلى حسين وكان به كل حُسن وجمال يتخيله حسين، وابتسامة مشرقة تتسع الميناء الشرقية، وعيون عسلية صافية فى صفاء سماء الأسكندرية الصيفية، وقالت برقة وصوت منخفض: نهارك سعيد حسين. وركبت سيارة مدرستها بسرعة الفراش، ولكن حسينًا رأى بعض زميلاتها يحدقن فيه ويبتسمن إليه .

قرر حسين ألا ينتظر زملاءه فطلب من علوان البواب أن يبلّغ زملاءه أن حسينًا ذهب إلى المدرسة.

قرر حسين أن يسير إلى المدرسة ولا يركب الترام مع زملائه كالمعتاد، إنه يريد أن يفكر ويحلم بإلينى بعد ابتسامتها الجميلة فى هذا الصباح الرائع. يريد أن يكون وحده لكى يستعيد صورتها الجميلة عندما التفتت إليه، وصوتها العزب عندما قالت له نهارك سعيد حسين... ما أجملها فى ابتسامتها ورقتها ... صوتها مثل الكروان عندما تتكلم .. وتسير مثل الغزال .. وسرعتها مثل الفراشة وهى تركب سيارة مدرستها.حسين يريد أن يعطيها خطابه بأى طريقة أكثر من أى وقت مضى بعد أن رأى ابتسامتها الجميلة المشجعة. فهل من الممكن أن تكون إلينى تشعر نحوه بنفس شعوره نحوها ؟

سار حسين فى سوق النصارى بشارع باب عمر باشا وهو يشاهد البيوت القديمة ولكنها اليوم جميلة منتصبة مثل قوام إلينى الجميل، وباعة الخضار والأسماك والطيور ومحلات البقالة والجزارة يستعدون ليوم حافل بالبيع والشراء وكذلك جامعو قمامة المحافظة يعملون بهمة ونشاط فى تنظيف شارع السوق والشوارع الجانبية كأنهم يشاركون حسينًا سعادته وفرحه بصباح إلينى المشرق .

ومر فى سيره على محطة مصر، وقد سماها الناس بهذا الاسم رغم إنها محطة القطارالرئيسية فى الأسكندرية، ومر كذلك على محل العصافيرى الحلواني لكن هذا الصباح ليس للحلويات أو غيرها فإن فم حسين وقلبه به حلاوة صباح إلينى وابتسامتها وعيونها وصوتها فإن التفكير فيها هو حلاوة الصباح وفاكهة الدنيا بأكملها.

سار حسين فى شارع محرم بك، وكان الطلبة من جميع الأعمار فى طريقهم إلى مدارسهم فحي محرم بك به أكبر عدد من المدارس فى الأسكندرية .وكان شارع محرم

بك فى هذا الصباح، مثل كل صباح مكتظًا بالسيارات والترام، والناس ذاهبون إلى كل مكان، وكان حسين يشاهد كل صباح بعضًا من ضباط البحرية بملابسهم العسكرية الأنيقة ينتظرون سيارتهم العسكرية لأخذهم إلى عملهم، فكان يشعر بالفخر أن مصر بها ضباط وجنود أشداء لحمايتها .

لم يشعر حسين بمرور الوقت، فقد وصل إلى المدرسة مبكراً ووجد البوابة الرئيسة مغلقة، فانتظر سعيداً حالماً مبتسماً وقلبه يرقص فرحاً.

(5)

فى الصباح التالى انتظر حسين إلينى، وكان حذرًا متيقظاً وكله آذان صاغية لكى يسمعها وهى تغادر شقتها. وفجأة سمع خطواتها تهبط الدرجات فى منتهى السرعة كأنها تطير وتلاقت عيناهما بسرعة خاطفة

نهارك سعيد حسين.

حسين متعلثما : نهارك سعيد إلينى . هذا خطاب لك . خطفت إلينى الخطاب ووضعته فى جيبها ولم تنظر إلى حسين، وكأنها كانت فى انتظار هذا الخطاب وتعرف محتواه. وقفزت الدرجات الباقية مثل الفراشة لكى تلحق بسيارة المدرسة .

ذهب حسين إلى مدرسته سيراً هوينا فلديه الوقت الكافى للوصول لمدرسته، كان الطقس فى هذا الصباح الجميل ربيعيًا معتدلًا، الهواء منعش وهو يفكر فى خطابه الذى أعطاه لإلينى، وهل سوف يعجبها كلامه الملئ بالحب والشوق والهيام وتتفاعل معه مثلما تفاعلت مع عبد الحليم فى الوسادة الخالية، وهل سوف تحضر فى السادسة مساء لتقابلة بجانب عش الحمام على سطح العمارة كما طلب منها راجياً باسم الحب السامى والشوق الحار الذى يكنه لها.

أخذ حسين كتاب الإنجليزى وذهب لأنتظار إلينى بجانب عش الحمام كانت

السماء صافية والشمس تميل للغروب، والهواء قادم من البحر المتوسط عليلاً منعشاً . لم يكن بجانب عش الحمام إلا مقعد واحد كبير، فوقف حسين فى انتظارحبيبة القلب. وبعد عدة دقائق حضرت إلينى وكانت فى منتهى الجمال والرقة لكنها تعمدت ألا تنظر إلى حسين، وكان معها بعض الحبوب فألقتها على أرض العش فالتف الحمام حولها يلتقطها وهو يطلق أصواتًا خافتة تنم عن سعادته بهذه الحبوب.

جلست إلينى على طرف المقعد وأشارت لحسين أن يجلس بجانبها.

اجلسى براحتك.

المقعد كبير ويتسع لأربعة أشخاص فى أحجامنا النحيلة .

جلس حسين بجانبها قبل أن تتراجع فى كلامها .

هل قرأت خطابى ؟

طبعا قرأته ولماذا أنا هنا إذن ؟

وما رأيك ؟

نظرت إليه بهلع وقالت وهى تنتحب بصوت يكاد لايُسمع ناظرة إلى الحمام : كلامك جميل لكن ماما قالت لى عندما ذهبنا إلى السينما مع بعض : السينما فقط ولا شئ آخر .

وما هو هذا الشئ الآخر؟

الشئ الآخر هو أننى لن أبادلك الحب فأنا يونانية مسيحية وأنت مصرى مسلم. وبعد القرارات الاشتراكية واستحواذ الحكومة على أملاك معظم اليونانيين وغيرهم من الجاليات الأخرى وكثير من المصريين كذلك .قال بابّا المولود فى الأسكندرية مثلى ومثلك ومثل أبيك إنه لا مستقبل لنا فى مصر.

نظر حسين بدوره إلى الحمام وهو يلتقط الحبوب من على الأرض وقد اضطرب قلبه وشعر بالدماء تكاد تقفز من وجنتيه و يفكر ماذا يقول، فاستدار إلى إلينى فتقابلت أعينهما فانهمرت إلينى فى البكاء.

لماذا البكاء إذن؟ إنك تحبيننى مثل ما أنا أحبك، لكنك تكابرى بسبب كلام مامتك وأبيك . وليس لنا دخل بقررات الحكومة الاشتراكية، أما بالنسبة للديانة المختلفة فلا أرى مانعًا فى أن نحب بعضنا البعض.

قالت إلينى بحزم ولكن برقة وحزن شديد بعد أن جففت دموعها : هذه آخر مرة نتقابل هنا بل فى أى مكان ولن أسمح لنفسى أن أحبك وعليك أن تفعل نفس الشئ، فلا مستقبل لحبنا، فقد اشتركت الحكومات والتقاليد والناس على خيانتنا وتدمير حبنا الوليد.

لكنى ليس لى قوة أو إرادة فى أن أمنع نفسى من حبك.

هذا شأنك نهارك سعيد.

تركت إلينى حسينًا وهو حائر مذهول لا يعرف ماذا يقول أو يفعل فى ميعاد غرامى انتهى فى ثلاث دقائق.

(6)

ذهب حسين إلى مسكنه وارتمى على سريره وهو يجهش بالبكاء، وبقى على ذلك الحال حتى الصباح التالى.

انتظر حسين بوجه متورم وعيون حمراء من سهر الليلة الماضية على باب العمارة لكى يرى إلينى وهى تركب سيارة المدرسة ويلقى عليها الصباح. ظهرت إلينى على الباب جميلة أنيقة لكن عيونها الساحرة حمراء متورمة . حاول حسين أن يقول لها نهارك سعيد لكنها لم تلتفت إليه، وقفزت فى سيارة المدرسة . ورأى حسين زميلاتها ينظرن إليها فى السيارة وإليه على باب العمارة وقد بهتت مشاريع ابتسامات على وجهوهن الجميلة .

كل صباح ينتظر حسين على باب العمارة لكى يقول «نهارك سعيد إلينى»، لكن

إلينى استمرت فى تجاهله وعدم إعطائة الفرصة لكى يكلمها أو يلقى عليها الصباح. وفى صباح خماسينى مكفهر وجد حسين إلينى أمامه.

نهارك سعيد حسين.

حسين متعلثماً وقد دق قلبه من المفاجأة لكنها دقات الفرح والحب والهيام : نهارك سعيد إلينى. وقبل ان يكمل حسين كلامه وجد فى كفه خطابًا منها . وطارت مثل الفراشة إلى سيارة المدرسة. نظر حسين إلى الخطاب وقرأه فى لمحة واحدة، فإنه ليس خطابًا، إنه تلغراف من ثلاثة أسطر يعلن وفاة حسين .

« عزيزى حسين : كفى عذاب لى ولك. انتظارك لى كل صباح هو كل العذاب والحرمان .فأنت لا تعرف مدى عذابى وأنا أراك كل صباح وأنا ممتنعة من النظر إليك أو التحدث معك. لو سمحت بحق يوم الحب الجميل والوحيد الذى قضيناه سويا مع عبد الحليم ولبنى لا تنتظرنى فى الصباح، فهذا يؤلمنى ويسبب لى مشاكل مع زميلاتى فى المدرسة».

قرر حسين أن يمنع نفسه من انتظارها كل صباح احتراما للجوار واحتراما للحب السامى الذى يكنه لها. لكنه قرر أن ينظر إليها من الشرفة وهى تركب سيارة المدرسة .

أثناء حصة التاريخ طرق باب الفصل ودخل وكيل ناظر المدرسة وأعطى المدرس ورقة صغيرة قرأها بسرعة.

ونادى: حسين محفوظ حسين عليك بأخذ حقيبة كتبك والذهاب لمكتب الناظر.

وقف حسين مذهولاً خائفاً.

المدرس بتودد : لا تخف يا حسين لا توجد أي مشاكل لك فلا تخف . خير إن شاء الله.

فوجئ حسين بوجود أبيه فى مكتب الناظر. نظر حسين إلى الناظر مرعوبًا.

فقال له الناظر: عليك الذهاب مع السيد والدك وقد طلب لك إجازة أسبوع وأنا وافقت عليها.

(7)

نظر حسين إلى أبيه مستوضحا كل هذه الأمور المتتالية، ما معنى ترك عمله والحضور للمدرسة فى نصف اليوم الدراسى ؟ وما هى دواعى الإجازة؟

نظر الأستاذ محفوظ إلى ابنه حسين مشفقاً.

وقال: لقد استشهد ابن عمك الملازم أحمد مصطفى فى اليمن، وسوف نسافر إلى القاهرة مع جدك لنكون مع عمك فى استقبال جسد الشهيد ودفنه بإذن الله.

نظر حسين إلى الأرض وأدمعت عيناه فى سكون فإن أحمد ليس ابن عمه فقط لكنه صديق الطفولة والمصيف والمرح واللهو، وكان ينتظره كل صيف عندما يأتى وأسرته من القاهرة لكى يستمتعوا بالإجازة الصيفية سويا. ورغم أن احمد يكبره بأربع سنوات وهو الذى علمه السباحة وركوب الدراجات وصيد الأسماك وأشياء أخرى كثيرة، لكن حسينًا كان يرى فيه صديقه ومعلمه وابن عمه وأخيه الكبير.

التف بعض المدرسين ومعهم الناظر حول حسين وأبيه يقدمون إليهما خالص التعازى فى مصابهما الأليم.

ذهب حسين وأبوه إلى بيت جده فى شارع الإمام مالك القريب من باب عمر باشا فوجد البيت مكتظًا بالمعزين مسلمين ومسيحين وأرمن ويونانين وشوام وغيرهم حيث كان جده الحاج حسين الفكهانى معروفًا فى سوق النصارى بباب عمر باشا .

وجد حسين جده ثائراً على عبد الناصر.

عبد الناصر خرب بيوت الناس وأخذ شقاهم، والآن يقتل أولادهم فى حرب ليس لنا بها دخل أو مصلحة ابنى محمود استشهد فدائيًا فى بورسيعد ولم أقل شيئا لأنه كان يدافع عن بلدنا، واليوم حفيدى استشهد دفاعاً عن اسم زعيم العرب الذى استصغر مصر على نفسه فأصبح يشترى زعامته بدماء المصرين.

الأستاذ محفوظ قائلاً : يا عم الحاج الحيطان لها ودان نريد أن نذهب إلى بيوتنا.

لو قبضوا عليّ سوف أقول لهم انى عجوز خرفان محروق على حفيدى الذى قتل فى حرب ليس لنا فيها ناقة ولا جمل.

سافر حسين وأبوه وجده وجدته للقاهرة ولحق بهم بقية العائلة فى اليوم التالى.

عاد حسين وأبوه بعد ثلاثة أيام من القاهرة مرهقين. وبعد تناول الطعام انصرفت أم حسين إلى غرفة نومها.

وجد حسين أمه منزوية فى غرفة نومها وهى تبكى بكاءً صامتاً.

فقال حسين لأمه : أرجوكى يا أمى أن لا تبكى، فإن بكاءك يجعلنى أبكى مرة أخرى، فقد بكيت بما فيه الكفاية حتى لم تبق دموع فى مقلتى.

نظرت إليه أمه بحزن وأعطته خطابًا وقد أغرورقت عيناها بالدموع.

نظر حسين إلى الخطاب فابتسم ابتسامة خجولة، فإنه ليس له حق الفرح والبهجة وابن عمه وصديق طفولته شهيد مدفون تحت التراب حتى لو كان الخطاب من حبيبة القلب إلينى .

(8)

« عزيزى حسين : عندما تقرأ خطابى هذا سوف أكون فى مطار القاهرة أنا وأسرتى فى طريقنا إلى كندا بلد مهجرنا الجديد. بعد أن لفظتنا بلدنا الأصلية مصر الحبيبة. وقد كان أبى يريد العودة إلى اليونان لكن ماما أرادت أن تكون بجانب أختها فى مونتريال. فأرجوك أن لا تغضب لهذا الخبر، فقد طلب منا بابا أن نكتم خبر هجرتنا عن الجميع. آمل أن تكون قد فهمت سبب بكائى فى السينما وفى عش الحمام . فقد كنت أبكى حبًا محكومًا عليه بالفشل، حبًا ساميًا طاهرًا عفيفًا، حبًا لك ولأسرتك الكريمة التى جاورتها منذ نعومة أظفارى. أرجوك يا حسين وبحق حبنا الطاهر أن لا تغضب منى وتسامحنى على كتمان خبر هجرتنا. كذلك أريد منك أن تنسانى لأنى سوف أحاول نسيانك ونسيان سوق النصارى وباب عمر باشا ونهارك سعيد».

ارتمى حسين بجانب أمه وهو ينتحب من البكاء، فقد خسر فى أسبوع واحد صديق الطفولة، وحبه الأول وأصبح يهزى لنفسه:

كندا ... كندا... كيف أذهب إلى إلينى فى كندا وما هو ثمن تذكرة الطائرة . أبعد مكان ذهبت إليه هو القاهرة .. ما بالك بكندا ؟ إلينى لم تقل على عنوانها فى كندا لكى أراسلها . قد ترسل لى خطابًا على عنوانى فى باب عمر باشا .

وعاش حسين السنوات التالية على أمل أن يصل إليه خطاب من إلينى . حسين لنفسه: إلينى قالت فى خطابها: يجب أن أنساها لأنها سوف تنسانى. لكنى غير مصدق كلامها، لأن دموعها ونظراتها تقول إنها تحبنى بصدق مثل حبى لها. سوف أنتظر خطابها إلى نهاية عمرى.

انشغل حسين فى الدراسة بكلية هندسة أسكندرية، ولم يعد يتذكر إلينى إلا قليلاً، ولكنها فى قلبه وفكره ولن ينساها أبداً. والآن عليه أن يتفوق ليكون معيداً بالكلية، ويُعد نفسه لبعثة دراسية فى الغرب فيكون قريباً من كندا وإلينى. وعاش حسين على هذا الأمل لخمس سنوات دراسة بالكلية، ورغم تفوقه فى كل سنوات الدراسة وحصوله على تقدير جيد جداً فى السنه النهائية لكنه لم يحصل على وظيفة معيد فى الكلية.

ذات يوم، وفي وقت العصر كان حسين يجلس بالشرفة المطلة على شارع العطارين وسوق النصارى يفكر فى مستقبلة بعد الكلية. فرأى رجلًا طاعنًا فى السن، إنه أحد اقارب مسيو زخارى يشترى بعض الفاكهة، رأى حسين أن يسأله عن أخبار إليني نزل حسين الدرجات بأسرع من البرق، وانتظر الرجل حتى ينتهى من الشراء فقال له : سعيد مبارك يا خواجه.

سعيد مبارك خبيبى من أنت؟

انا حسين محفوظ، وكنت جار مسيو زخارى فى هذه العمارة.

مسيو زخارى رخمه الله يا خبيبى .

بهت حسين من الفاجعة لكنه تمالك نفسه بسرعة ليعرف بقية أخبار الأسرة.

كيف حدث هذا ومتى ؟

(9)

هذه قصة طويلة وحقيبة الفاكهة ثقيلة على يدى، قال الخواجه هذا وهو يعطى حقيبة الفاكهة لحسين.

أسمح لى أن أحملها لك . هل تسكن قريباً من هنا ؟

حوالى مائة وخمسين مترا من هنا وأشار ناحية شارع الخديو.

حسين يريد معرفة أخبار إلينى لكنه محرج أن يسأل عنها، فإن معظم اليونانيين المصريين لهم طباع مصرية شرقية، فعليه أن يسأل عن أخبار أسرتها عموماً.

حسين متعلثماً : ماذا حدث لمسيو زخارى ؟

اليونانيون الخرامية سرقوه بعد أن اشترك معهم فى مشروع رستران، وأصيب بشلل نصفى من الفاجعة وبعدها بشهور توفى حزيناً على شقى عمره.

حسين لنفسه : الرجل لم يذكر إلينى.

استطرد حسين بحياء: وماذا فعلت بقية الأسرة ؟

عايشين فى كندا بأى شكلً كان.

وصل الاثنان لسكن الخواجه ولم يعرف حسين أخبار إلينى، وهذا الخواجه العجوز الخبيث يعرف ماذا يريد، لكنه لا ينطق ...

وقبل أن يفترقا قال العجوز : على فكرة إلينى تعيش فى أسكندرية من سنة.

وقع الخبر على حسين كالصاعقة وكاد يمسك فى رقبة هذا العجوز الخبيث. لكنه تمالك نفسه .

عايشة فى أى مكان بالاسكندرية ؟

تزوجت فى كندا واخد مصرى كان يدرس هناك اسمه جرجيرى.

الدكتور فوزى الدرديرى أستاذ الفيزياء بكلية الهندسة.

تقريباً هو ... مرسى خبيبى . وأخذ الخواجه حقيبة الفاكهة من حسين.

هل تعرف عنوانها لكى تذهب أمى لزيارتها وتبارك لها ؟

لا اعرف العنوان لكنها تسكن خلف كلية الخندسة.

رجع حسين لمنزله وهو يجر أذيال الخيبة والحسرة وقد سبقه الدرديرى فى فعل ما كان ينوى فعله.

والأقدار لها قولها النهائى. إلينى لن تعيش خارج مصر وطنها ووطن أحبائها. لكن لماذا لم تعرّفنا أنها تعيش فى الأسكندرية ؟ بالتأكيد لأنها لا تريد الحضور لمسكنها القديم وتثير ذكريات الحب والشوق والحرمان لحسين ولنفسها. فقد نسيت أو تناست غرامها بحسين حبها الأول. لكنها لم ولن تنسى أبداً حبها لمصر.

السلام عليكم عم علوان.

عليكم السلام يابشمهندس : هذا خطاب لك .

شكرا ياعم علوان.

أنه خطاب من وزارة السد العالى يخطره بالحضور لموقع السد فى خلال أسبوع. تشاء الأقدار أنه فى اليوم نفسه الذى يعلم حسين بوجود إلينى فى الأسكندرية يعلم أن عليه مغادرتها إلى أسوان.

السد العالى هو حب حسين الجديد الذى يجب أن ينجح فيه والسهر عليه ليل ونهار، أما إلينى فإن حبها ذكرى رقيقة جميلة سعيدة سوف يعيش عليها بقية حياته.

تمت

***